تأليف : حسن أحمد ابراهيم
عرض وتعليق : محمد الأمين سعيد

هذا الكتاب رسالة ماجستير بعنوان محمد على فى السودان دراسة لاهداف الفتح التركى المصرى للدكتور حسن احمد ابراهيم المحاضر بقسم التاريخ ـ جامعة الخرطوم .

تتكون الرسالة من (أ) تصدير ومقدمة وخمس فصول وخاتمة الى جانب الملاحق وهى عبارة عن قائمة بالمصادر التى اعتمد عليها الباحث وهى اساسا الوثائق الخاصة بعصر محمد على بدار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة ، وتقارير المعاصرين جريدة الوقائع المصرية ثم المراجع العربية والافريقية .

ب ـ نموذج لوثائق عهد محمد على جـ ـ خريطة السودان المصرى سنة ١٨٣٨

الكتاب يقع فى ١٩٦ صفحة من الحجم المتوسط وهو من مطبوعات دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم .

مقدمة الكتاب تحتوى على عنوانين الاول (محمد على فى مصر قبل فتح السودان) وتحت هذا العنوان يحدثنا المؤلف عن نشأة محمد على وايفاده لمصر وعن الصراع على السلطة فى مصر والذى دار بعد جلاء الفرنسيين عنها فى ١٨٠١ والانجليزى فى ١٨٠٣ وعن الاساليب المكيافليه التى اتبعها محمد على حتى تمكن بمساندة الشعب المصرى من تولى السلطة فى مصر فى ١٨٠٥ وكيف ان ذلك لم يكن نهاية المطاف وانما كانت بداية سلسلة من المؤامرات والدسائس ضد محمد على « من السلطان والمماليك يساندهم الانجليز » ولكن الباشا ينجح فى القضاء امام تلك المؤامرات واحدة تلو الأخرى .

والعنوان الثانى (السودان قبل فتح محمد على) يبدأ بموجز لتاريخ السودان بدأ بالهجرات العربية الى السودان منذ القرن التاسع الميلادى حتى قيام السلطنات والممالك الاسلامية كسلطنة الفور والسلطنة الزرقاء ومملكتى تقلى والمسبعات فى كردفان) ثم يركز على نظام الحكم فى مملكة الفونج ثم يشير بايجاز لعهد بادى ابودقن ١٦٤٥ ــ ١٦٨٠ وغزوه لتقلى وانتصار الفونج بقيادة ابو الكيلك على المسبعات وعهد بادى ابو شلوخ آخر زعماء الفونج الاقوياء وكيف انتهت سيطرة الفونج الفعلية من بعده وكيف سيطر الهمج والصراعات داخل هذا البيت والتى قادت البلاد الى التمزق والتفكك والفوضى وجحافل اسماعيل باشا تزحف عليها .

بعد هذه المقدمة أو المدخل نصل الى لب الرسالة متمثلة فى الفصل الاول وهو بعنوان اسباب فتح محمد على للسودان . يبدأ المؤلف هذا الفصل بقوله « يحدثنا التاريخ ان معظم السلاطين والملوك الذين استقلوا بحكم مصر منذ اقدم العصور فكروا فى امتداد مملكتهم جنوبا نحو السودان » من هذا يخلص الى انه لم يكن شاذا ولا مستغربا أن يفكر محمد على فى غزو السودان . ثم يعدد اسباب الفتح ويصنفها الى اسباب اساسية وأخرى ثانوية ويثبت بالبرهان القاطع ان الرقيق هو اهم اسباب الفتح على الاطلاق معتمدا على اقوال محمد على شخصيا من خلال رسائله للمسئولين . ثم يلى الرقيق فى الاهمية التنقيب عن المعادن وبعد هذا يسرد الاسباب الثانوية وهى اعادة العلاقات التجارية بين البلدين والتى كانت قد تدهورت قبل الفتح . التخلص من الجنود الارناؤد ثم التخلص من المماليك الذين كانوا قد استقروا فى منطقة دنقلة بعد مذابح القلعة واسنا .

ثم بعد ذلك يعود المؤلف لمناقشة اراء بعض المؤرخين حول اسباب الفتح والذين لا يرو ما رآه ويفند هذه الاراء ويثبت خطل ماذهبوا اليه .

هذا الفصل اصيل واساسى بالنسبة للرسالة بل هو ايجاز لكل الرسالة وما تلاه من فصول هو تأكيد وتفصيل لما وردفى هذا الفصل .

واهمية هذا الفصل ترجع الى انه حدد بصورة قاطعة ومن خلال الوثائق كما ذكرت اسباب الفتح فاذا عرفنا ان هناك الكثير مما يزعم انه اسباب للفتح يملأ بطون الكتب ويدرس لأبنائنا فى مختلف المراحل ، والذى نود ان يراجع على ضوء

مثل هـذه الدراسات لتأكـد لنا اهميةما توصل اليه المؤلف فى هذا الفصل .

الفصل الثانى بعنوان « محمد علىوجلب العبيد من السودان » وفيه توضيح لاهتمام الباشا بالرقيـق ، وهو هـدفالفتـح الاسـاسى ، وكيف انه احتـكر التعـامل فى الرقيق كما فيه اشارات الىمجهودات المسئولين بدءاً باسماعيل وابراهيم حتى عصر خورشـيد فى سبيل تحقيـقاهداف محمـد على فى هـذا المجال كما اوضح وسائل جلب الرقيـق وهى أ ـ الغزوات المسلحـة .

ب ـ فرضه على الاهالى بدلا عـنالضريبة جـ ـ فرض مقاديـر منـه على المديريات بل ان الباشا لجأ الى دارفـوروهى خارجة عن دائرة نفـوذه لاستيراد العبيد . ثم يورد ما اتخـذه من اجراءات لوصول الرقيقة لمصر ثم العنايـة بهم فى اسوان حيث اقيم لهم معسـكر هنـاكلتدريبهم عسكريا . وفى نهايـة الفصـل يشير الى ان الاهتمام بالرقيق قد قل بعدعهد خورشيد وقد وجه هذا الاهتمام الى جوانب أخـرى .

اما الفصـل الثالث وهـو بعنوان« الاغراض التى استخـدم فيها العبيـد المجلوبين من السودان » ويذكـر المؤلفأول اغراضه بالطبع كان الحاقهم بالجندية وكان امله كبيرا فى تجنيد اعـداد كبيرةولكن ذلك لم يتحقـق بالصـورة التى ارادها لأسباب متعددة منها سوء وفسادالاداريين واهمالهـم والرحلـة الشاقـة الطويلة التى كان على العبيـد قطعها الىمصر بالاضافة الى انعدام الماء والمعاملـة السيئة وعدم الرعاية الصحية ادى كل ذلكالى هلاك الكثيرين ، هذا الى جانب عدم رغبة الزنوج انفسهم مفارقة اوطانهم ثـماخـيرا الضغط الدولى على محمـد على ووعده بان يعمل على الغاء صيد الرقيق .

هذا وقد شارك العبيد المجلوبين منالسودان فى الحروب الخارجية اذ ارسلوا لاخماد ثورة المورة ضد السلطان وثورات الوهابيين فى الحجاز .

وفى غير الجانب العسكرى فقد استغلوافى العمل فى المشاريع الصناعية والزراعية بل ان النسوة والصبيان كانوا يباعون بناءعلى اوامر محمد على لتجار الرقيق وبهـذا شكلوا مصدرا من مصادر الدخل بالاضافةالى انهم كانوا يمنحون للعساكر فى مقابل رواتبهم حتى اضطر محمد على الى الغاءذلكالنظام بضغط الدولوخاصة انجلترا.

ومن استخدامات العبيد أيضا العمل فى حفظ الامن (الى جانب الشايقية) وفى جمع الصمغ واعمال الزراعة وفى التنقيب عن الذهب ورغم قيامهم بهذه الاعمال فان المعاملة التى كانوا يلقونها من قبل المسئولين كانت سيئة واجورهم زهيدة للغاية مما دفعهم الى القيام بثورة مسلحة ضد السلطة فى عام ١٨٤٤ .

وفى الفصل الرابع وعنوانه محمد على والتنقيب عن المعادن فى السودان . يقدم المؤلف عرضا سريعا لمحاولات محمد على التنقيب عن المعادن فى مصر قبل فتح السودان والتى لم تسفر عن أى نجاح ثم يشرح بالتفصيل تلك المحاولات التى قام بها محمد على للتنقيب عن الذهب فى السودان خاصة وانه الهدف الثانى من اهداف الفتح . ويبدأ ذلك بمحاولات اسماعيل فى فازوغلى وبالتقارير التى رفعها كل من روسيجير وبوريانى وقد اوضح الاخير عدم جدوى البحث الا ان الاول كان اكثر تفاؤلا مما دفع محمد على الى زيارة السودان للوقوف على حقيقة الأمر . ويشير الى ان الزيارة تمت لظروف داخلية وخارجية ففى الداخل تدهور الموقف الاقتصادى كان دافعا للبحث عن المال وفى الخارج تدهور العلاقة بينه وبين السلطان بعد الحروب السورية ، فرأى محمد على ان استقلاله عن السلطان لن يتم الا عن طريق اما حرب السلطان أو اغراؤه ورجاله بالمال وفى كلا الحالين فاحتياجه للمال ضرورى اذن فهذا هو الهدف الاساسى للزيارة الى جانب اهداف ثانوية .

وقد حققت الرحلة فشلا ذريعا بالنسبة للباشا ورغم ذلك استمر التنقيب عن الذهب ولكن دون جدوى كما ان المحاولات فى جبل شيبون اتت مخيبة للامال . ويعزو المؤلف ذلك الفشل الى عدة اسباب فالى جانب عدم وجود الذهب بالكميات المتصورة فهناك عوامل واسباب أخرى ساعدت فى الوصول الى تلك النتيجة .

وفى نهاية الفصل نقف على محاولات التنقيب عن الحديد فى كردفان وحفرة النحاس فى (دارفور بالاتفاق مع سلطانها) والفضة والنحاس فى جبل موية والرخام فى حلفا ولكن كل ذلك لم يأت بفائدة كبيرة .

الفصل الخامس والاخير « محمد على والتجارة فى واردات السودان » فالى جانب الصيد والمعادن فان محمد على لم يفته استغلال منتجات البلاد فاهتم

بالزراعة فلم يدخل نظما احدث ولم يحفر الترع ويقيم الجسور بل كان يجبر الاهالى على الزراعة والاهتمام بمحاصيل معينةهذا الى جانب انه ادخل زراعة بعض المحاصيل كالنيلة والافيون والارز وقصب السكر وغيرها .

كما يبين المؤلف اهتمام محمد علىبالماشية واوضح الطرق المختلفة التى كان يحصل عليها ويتضح مدى اهتمامه من تعيين مأمور للاشراف عليها الى جانب الاشراف الصحى بواسطة اطباء بيطريينوحث المسئولين على رعايتها وتجهيز علفها خلال رحلتها الى مصر ، كما لاقت منتجات الماشية من الجلود والصوف نفس الاهتمام . هذا الى جانب ان محمدعلى احتكر التجارة فى العاج والريش والصمغ والجلود والسنامكى وغيرها من منتجات السودان الهامة .

بعد هذا يشير المؤلف الى الطرق التى كانت تندفق عبرها هذه المنتوجات الى مصر . وفى نهاية الفصل يتساءل المؤلف الى أى مدى نجح الباشا فى استغلال منتجات السودان وارداتهويجيب بانه لاشك قد احرز بعض النجاح. ولماذا بعض النجاح يقول المؤلف « يبدوان الباشا لم ينجح نجاحا تاما فى دفع التقدم الاقتصادى فى السودان وبالتالى لم يستفد الاستفادة الكاملة التى كان يتوقعها من منتجات السودان وارداته »ربما عاد ذلك للاسباب الآتية :

الضرائب الباهظة وطرق جبايتها اديالى عدم الاستقرار ويتمثل ذلك فى فرار الاهالى عن قراهم وظاهرة الثورات ثم الىسوء وفساد الاداريين كان سببا فى نقص العائد احيانا واخيرا فان كثير من المنتجاتالسودانية كانت تهرب الى سواكن ومنها الى الخارج .

فى الخاتمة يخلص المؤلف الى انمحمد على حقق بعض اهدافه من الفتح فهو قد تخلص من الجنود الارناؤد ومن المماليك غير انه فشل فى تحقيق غرضيه الرئيسيين وهما العبيد والمعادن وعلىوجه الخصوص الذهب .

هذا ما اردت ذكره فى عرض هذاالكتاب القيم وارى انه بحق يعتبر فتحا فى مجال الدراسات السودانية .